الولايات المتَّحدة الأمريكيَّة
إيبارشيَّة لوس أنجيلوس
قناة لوغوس
تمَّ تسجيلها على مدى أربع حلقات، كلّ حلقة لمدَّة ٢٥ دقيقة
سبتمبر وأكتوبر ٢٠١٤م

عقيدة الخلق في بعض النُّصوص اللِّيتورجيَّة وعند بعض آباء الكنيسة

تكوين ١:١، ١٦، ٢٦، ٣١ ؛ إشعياء ٤٥:١١، ١٢، ١٨ ؛ عاموس ٤:١٣ ؛ ملاخي ٢:١٠
أعمال الرُّسُل ١٧:٢٤-٢٨ ؛ أفسس ٢:١٠ كولوسي ١:١٢-١٧ ؛ عبرانيِّين ١:٨-١٢ ؛ رؤيا ٤:١١

القُدَّاس المرقسي (الكيرلُّسي) .....

- ''**أنت الذي خلق السَّمواتِ، وما في السَّمواتِ، والأرضَ وكلَّ ما فيها، البحارَ والأنهارَ والينابيعَ والبحيراتِ وما في جميعِها. أنت الذي خلقَ الإنسانَ كصورتِك وكشبهك، وخلقت كلَّ الأشياء بحكمتك، نورِك الحقيقي، ابنِك الوحيد ربِّنا وإلهنا ومخلِّصنا وملكنا كلِّنا يسوع المسيح**''.

القُدَّاس الباسيلي .....

- ''يا اللهُ العظيمُ الأبدي الذي **جبل الإنسانَ على غير فساد**''.
- ''الذي **خلق السَّماءَ والأرضَ والبحرَ وكلَّ ما فيها**، أبو ربِّنا وإلهنا ومخلِّصنا يسوعَ المسيح، **هذا الذي خلقتَ الكُلَّ به، ما يُرى وما لا يُرى**''.
- يقول الشَّماس: ''أطلبوا ... لكي المسيح إلهنا ... **يتحنَّن على جبلته التي صنعتها يداه**، ويغفر لنا خطايانا''.

القُدَّاس الغريغوري .....

- ''الذي (أي الابن) **من أجل الصَّلاح وحدَه، ممَّا لم يكُن، كوَّنت الإنسان، وجعلته في فردوس النَّعيم**''.
- ''**خلقتني إنساناً، كمحبِّ البشر**، و لم تكن أنت محتاجاً إلى عبوديَّتي، بل أنا المحتاجُ إلى رَبوبيَّتِك. من أجل تعطُّفاتك الجزيلة **كونتني إذ لم أكن**''.
- ''أنت الذي **جبلتني** ووضعت يدك عليَّ، **وكتبتَ فيَّ صورة سُلطانك، ووضعت فيَّ موهبة النُّطْق**''.

صلوات سرّ المعموديَّة .....

- ''أيها الأزلي السيِّد الرَّب الإله، **الذي جبل الإنسان كصورته ومثاله، الذي أعطانا سُلطان الحياة الدائمة**. ثمَّ لما سقط في الخطيئة، لم تتركه، بل دبرت خلاص العالم بتأنُّس ابنك الوحيد ربنا يسوع المسيح''.
- ''**يا جابل المياه وخالق الكُل**، ندعو قوَّتك الطَّاهرة الذَّاتيَّة، الاسم الذي يفوق كلَّ الأسماء، الذي لابنك الوحيد يسوع المسيح ربِّنا ... نسألك يا ملكنا عن عبيدك، انقلهم وأبدلهم وقدِّسهم وقوِّهم ...''.
- ''... أيها الرَّب ضابط الكُل، إله آبائنا، **الذي خلق السَّماء والأرض وكلَّ زينتها، الذي خلق المياه التي فوق السَّماء، وثبَّت الأرض على المياه، الذي جمع المياه إلى مكان واحد، الذي ربط البحر وغلق الأعماق وختمها باسمه** ...''.

تسبحة نصف اللَّيل .....

- ''صنع الإنسان كشبهه وصورته، لكي يباركه''.
- ''يا لعظم أعجوبة، أُخذ الضِّلع من جنب آدم، وجُبلت منه امرأة''.

* * *

تتلخَّص عقيدة الخلق في المسيحيَّة في ثلاثة بنود:

(١) خلقة الكائنات من العدم

(٢) خلقة الإنسان على الخلود وعلى صورة الله ومثاله
(٣) تدعيم النِّعمة التي نالها الإنسان في خلقته، بالوصيَّة

(١) خلقة الكائنات من العدم

- الكائنات لم تُخلق من مادة أزليَّة[١]، والطَّبيعة لم تخلق من تلقاء ذاتها.
- خلقة الكائنات، تستوجب وجود فكر سابق.
- الكون خُلق من العدم، أي خُلق ممَّا لم يكن موجوداً من قبل. والعدم ليس هو الأزل.
- إذاً، الخلائق لها بداية لوجودها. وهكذا يظل الفارق هائلاً بما لا يُقاس بين الخالق وخليقته.
- لأنَّ الخليقة خُلقت من العدم، فهي لا تملك قدرة ذاتيَّة على البقاء، إذ من الممكن أن تعود إلى العدم.
- لذلك فالخليقة بإرادة الخالق خُلقت، وبإرادة الخالق، هي كائنة أي موجودة[٢].
- الابن الخالق أنعم على خليقته إذ أعطاها قبساً من حكمته، لكي تظهر المخلوقات أنها أعمالٌ جديرة بالله.

يوضِّح البابا أثناسيوس الرَّسولي، أوَّلاً، أنه لا يمكن أن تكون الطَّبيعة قد وُجدت من تلقاء ذاتها، أو أنها هي الله، فيقول:

[إذا كان النَّاس يقفون هكذا منذهلين أمام أجزاء الخليقة، متوهِّمين أنها آلهة، فانه يمكن توبيخهم ... لأنه إذا أخذ المرء أجزاء الخليقة منفصلة، وتأمَّل في كلٍّ منها على حدة، كالشَّمس مثلاً على حدة، والقمر على حدة، وأيضاً الأرض والهواء، والحرارة والبرودة، وعناصر الرُّطوبة والجفاف، وفصلها عن ارتباطها المتبادَل، فإنه يجد حتماً أنه لا يمكن أن يكون أحدها كافياً لنفسه، بل كلٌّ منها في حاجة لمساعدة الآخر، وأنها تحتفظ بكيانها بمساعداتها المتبادَلة

إذاً فكيف يمكن أن تكون هذه الأشياء آلهة، وهي مفتقرة لمساعدة بعضها البعض؟ وكيف يليق أن نسأل منها أيَّ شيء، إن كانت هي أيضاً تطلب المساعدة لنفسها بعضها من بعض؟ لأنَّ الحقيقة المسلَّم بها عن الله، أنه ليس في حاجة لأيِّ شيء، بل هو معتمد على ذاته، مستقلٌ بذاته، ومنه تستمد كلُّ الأشياء كيانها.

(ولعلَّهم يقولون): إنَّ الكُل هو الله. لأنه إذا ما اقترن الكُل معاً، لا يحتاج إلى معونة خارجيَّة، بل تكون المجموعة كافية لذاتها ومستقلَّة من كلِّ الوجوه. (وهذه الحُجَّة تُظهر فسادهم) لأنه إذا كان اقتران الأجزاء يكوِّن الكُل، وكان الكُل مكوَّناً من الأجزاء، فإنَّ الكُل يتضمَّن الأجزاء، وكلٌّ منها جزءٌ من الكُل. ولكن هذه بعيدة كلّ البُعد عن فكرة الله. لأنَّ الله هو الكُل، وليس مكوَّناً من مجموعة أجزاء، ولا يحتوي على عناصر متعدِّدة] (رسالة إلى الوثنيِّين ٤:٢٧، ٥ ؛ ١:٢٨-٣).

[كثيراً ما عُرف الصَّانع بصنعته، حتى ولو كان غيرَ منظور ... فإن كان يوجد هنالك في كلِّ مكان، نظام لا اضطراب، وتناسب لا تباين، وترتيب لا تشويش. وكلُّ شيء في نظام متناسق، وجب علينا حتماً، بل دفعنا دفعاً أن نُدرك السيِّد الذي جمع كلَّ الأشياء معاً، وأحكمها، وأوجد فيها تناسقاً. لأنه وإن كان لا يُرى بالعَين، إلا أنه يمكن من رؤية نظام وتناسق الأشياء المضادة، أن ندرك ضابطها ومرتِّبها وملكَها] (رسالة إلى الوثنيِّين ١:٣٥، ١:٣٨).

ويقول البابا أثناسيوس الرَّسولي:

[معلومٌ أنَّ الكائنات لم تُخلق من تلقاء ذاتها، **فإنَّ خلقتَها تستلزمُ وجودِ فكرٍ سابق. كما أنها لم تُخلق من مادة موجودة من قبل،** لأنَّ الله ليس ضعيفاً. **ولكن الله خلق الكون من العدم، ومن غير سبق وجوده مطلقاً، بكلمته،** كما يقول (أولاً) على لسان موسى «في البدء خلق الله السَّموات والأرض»[٣] ... وإلى هذا يشير أيضاً

١- للقدِّيس باسيليوس الكبير كتاب عن تفسير ستَّة أيام الخلقة المسمَّاة Hexameron وهو عبارة عن ٩ خُطَب، يشرح فيها الآيات (تكوين ١:١-٢٦). ويدحض فيه النَّظرية الفلسفيَّة الكونيَّة عن أزليَّة الكون ووجوده الذَّاتي.

٢- «أنت مستحقٌ أيها الرَّب أن تأخذ المجد والكرامة والقُدرة، لأنك أنت خلقتَ كلَّ الأشياء، **وهي بإرادتك كائنة وخُلقت**» (رؤيا ٤:١١).

٣- تكوين ١:١

بولس إذ يقول «بالإيمان نفهم أنَّ العالمين أُتقنت بكلمة الله، حتى لم يتكوَّن ما يُرى ممَّا هو ظاهر»[٤]][٥].

وتعقيباً على قول البابا أثناسيوس الرَّسولي، **[إنَّ خِلقة الكائنات تستلزم وجود فكر سابق]**
يقول الرَّب بفم إرميا النَّبي: «قبلما صوَّرتُكَ في البطن عرفتُك. وقبلما خرجتَ من الـرَّحم قدستُك. جعلتُـك نبيًّـا للشُّعوب» (إرميا ١:٥).

ويقول البابا أثناسيوس الرَّسولي، مكرراً القَول:
[**الخلائق قد أتت من العدم، إذ لها بداية لوجودها.** لأنه «في البدء خلق الله السَّموات والأرض» (تك ١ : ١) وكلَّ ما هو موجود فيها][٦].

ويقول البابا أثناسيوس الرَّسولي:
[الله صالح، أو بالحري هو بالضَّرورة مصدر الصَّلاح، **والصَّالح لا يمكن أن يبخل بأيِّ شيء.** لذلك فإنـه، إذ لا يضن بنعمة الوجود على أيِّ شيء، **خلق كلَّ الأشياء من العدم بكلمته – يسوع المسيح ربِّنا**][٧].

• إذاً، فالخلق هو نعمة موهوبة من الله الآب الخالق لخليقته. ولكن ما هي هذه النِّعمة؟ هذا ما يشرحه البابا أثناسـيوس، أنها هي اتحاد كلمة الله الأزلي بالمخلوقات، فتشترك المخلوقات في الكلمة الذي يستمد وجوده الحقيقي من الآب. فيقول:
[**السَّبب الذي لأجله اتحد الكلمة – كلمة الله – نفسه بالمخلوقات، هو عجيـب حقًّـا** ... لأنَّ طبيعـة المخلوقات – وقد برزت إلى الوجود من العدم – زائلة وضعيفة وفانية، **إن كانت مكوَّنة من نفسها فقط**[٨] ... فإلـهُ الكُل ... إذ رأى أنَّ كلَّ الطَّبيعة التي خُلقت زائلة وعُرضة للانحلال، وفق نواميسها، ولكي لا تنتـهي إلى هـذا المصير، ولكي لا يتحطَّم الكَون مرَّة أُخرى ويعود إلى العدم، **لهذا خلقَ كلَّ الأشياء بكلمتـه الأزلي، وأعطـى الخليقة وجوداً كيانياً** ... لكي تتمكَّن من أن تستقر آمنة دواماً، **لأنها تشترك مع "الكلمة" الذي يسـتمد الوجـود الحقيقي من الآب، وتستمد منه المعونة للوجود** ... لأنه «هو صورةُ الله غير المنظور، بكرُ كلِّ خليقة. **فإنه به وفيـه كلُّ الأشياء كائنة، ما يُرى وما لا يُرى، وهو رأس الكنيسة**»[٩] كما يُعلِّم خُدَّام الحق، في كتاباتهم المقدسة][١٠].

ويقول البابا أثناسيوس أيضاً:
[إنَّ كلمةَ الآب القدُّوس، الكُلِّي القُدرة، والكُلِّي الكمال، **اتَّحد بالكون** وكشف عن قوَّاتـه في كـلِّ مكان، وأنار الكُل، ما يُرى وما لا يُرى، **وهو يمسكها كلَّها ويربطها بنفسه، دون أن يترك شيئاً خالياً من قوَّته**، بل بالعكس، **يُحيي كلَّ شيء، ويعضِّد كلَّ شيء في كلِّ مكان** ... وبإطاعته – أي بإطاعة الله الكلمة – فإنَّ ما على الأرض يحيا، وما في السَّماء ينتظم. وبفضله تتحرَّك كلُّ البحار والمحيطات العظمـى في حـدودها المعيَّنة، وتعطي الأرض الجافة أعشاباً، وتكتسي بكلِّ أنواع النباتات ... إنه لا يوجد شيءٌ كائنٌ يشغل حيِّـزاً، إلاَّ وخُلق به، وقائمٌ به، كما يقول أيضاً اللاَّهوتي: «في البدء كان الكلمة، والكلمة كان عند الله، وكان الكلمة الله. **كلُّ شيء به كان، وبغيره لم يكن شيءٌ ممَّا كان**»[١١]][١٢].

يقول القدِّيس كيرلُّس الكبير:

٤– عبرانيِّين ١١:٤
٥– تجسد الكلمة ١:٣، ٢
٦– رسائل القدِّيس أثناسيوس عن الرُّوح القُدُس، ٢٢:١
٧– تجسد الكلمة ٣:٣
٨– بحسب النَّص اليوناني: ''إن كانت كائنة واعتمدت على ذاتها''.
٩– كولوسي ١:١٥–١٨
١٠– الرِّسالة إلى الوثنيِّين ٢:٤١، ٣
١١– يوحنَّا ١:١–٣
١٢– الرِّسالة إلى الوثنيِّين ١:٤٢، ٢

[الله الآب يُعطي الحياة لكلِّ الأشياء بالابن في الرُّوح القُدُس؛ وكلُّ ما يوجد ويتنفس في السَّماء وعلى الأرض، إنما يأخذ وجوده وحياته من الله الآب بالابن في الرُّوح القُدُس. لذلك، لا طبيعة الملائكة ولا أي شيء آخر مهما كان، ممّا هو مخلوق، ولا أي شيء جاء من عدم الموجود إلى الوجود، يمتلك حياة (في ذاته) كثمرة لطبيعته الخاصة؛ بينما على العكس، فالحياة تنشأ – كما قلت – من الجوهر الذى يفوق الكلّ، وهو أمر خاص به وحده أن تكون له القدرة على إعطاء حياة، وذلك بسبب أنه هو بالطَّبيعة الحياة] (عظة ١٤٢ على لوقا ٢٢).

ويقول البابا أثناسيوس الرَّسولي:

[والآن فإنَّ ابنَ الله الوحيد وحكمتَه الذَّاتيَّة، هو خالقُ وبارئُ جميعِ الكائنات، لأنه يقول: «بحكمة صنعتَ كلَّ الأشياء»، «ملآنة الأرضُ بخليقتك»[١٣]. ثمَّ **لكي لا توجد المخلوقات فقط، بل يكون وجودُها صالحاً، فلهذا سُرَّ الله أن تنحدر حكمته إلى مستوى الخلائق، حتى تبث أثراً وقبساً من صورتها (أي صورة الحكمة) في جميع المخلوقات معاً، وفي كلٍّ منها على حدة، حتى تظهر المخلوقات أنها متَّصفة بالحكمة وأنها أعمالٌ جديرة بالله**][١٤].

• إنَّ الكَون وكلَّ ما فيه، لا يسير وفق قوانين طبيعيَّة عمياء، ولكنَّه محكومٌ بقوَّة اللُّوغوس وحكمتِه. وكلُّ الأشياء تحيا وتنتظم به حسب طبائعها المختلفة، إذ هو فوق الكُل، وهو الضَّابط الكُل، والقوَّة المدبِّرة لكلِّ الخليقة، فإنه يفعل كلَّ هذا لمجد أبيه.

• **وبسبب الحكمة التي وضعها الله في خليقته، استطاع الإنسان أن يتعرَّف على خالقه، ويسبِّحه مع كلِّ الخليقة، على نعمته.** ومن أجل هذا ندرك الآن معنى الهوس الثَّالث الذي نُسبِّح به الرَّب في الكنيسة كلَّ يوم، حيث يقف الإنسان سيِّدُ الخليقة وسيِّدُ الكائنات كلِّها، يُقدِّم تسبيحاً للخالق، قائلاً: ''مباركٌ أنت أيها الرَّبُّ إلهُ آبائنا، ومتزايد بركة، ومتزايد علواً إلى الآباد''. ثم يُقدِّم باسم الخليقة ونيابة عنها، تسبيحاً للخالق، مناجياً الخليقةَ كلَّها، بقوله: ''باركي الرَّب ... سبِّحيه وزيديه عُلواً إلى الآباد''. وهذه الخليقة، كما يوردها الهوس الثَّالث هي: ''جميعُ أعمال الرَّب. السَّموات. جميعُ ملائكة الرَّب. جميع المياه التي فوق السَّموات. جميع قوَّات الرَّب. الشَّمس والقمر. سائر نجوم السَّماء. الأمطار مع الأنداء. السحب والرياح. جميع الأرواح. النَّار والحرارة. البرد والحر. الأهوية والأنداء. الليالي والأيام. النُّور والظلمة. البرد والصقيع. الجليد والثلج. البروق والسحب. الأرض كلها. الجبال وجميع الآكام. جميع ما ينبت على وجه الأرض. الينابيع. البحار والأنهار. الحيتان وجميع ما يتحرك في المياه. جميع طيور السَّماء. الوحوش وكل البهائم''، ثمَّ يُنهي الإنسان تسبيحه لله، بمخاطبة كلِّ بني البشر، وكهنة الرَّب، وعبيد الرَّب، وعابدي الرَّب، والقدِّيسين والمتواضعين، قائلاً: ''سبِّحوه وزيدوه علواً إلى الآباد''.

(٢) خلقة الإنسان على الخلود، وعلى صورة الله ومثاله

يقول الكتاب المقدَّس عن الخليقة الأولى للإنسان:

+ «وقال الله: نعمل الإنسان على **صورتنا كشبهنا**... فخلق الله الإنسان على صورته، على صورة الله خلقه، ذكراً وأُنثى خلقهم. وباركهم الله وقال لهم: أثمروا واكثُروا واملأوا الأرض وأخضعوها وتسلَّطوا..» (تكوين ١:٢٦-٢٨).

+ «وجَبَلَ الرَّبُّ الإله آدم تراباً من الأرض، ونفخ في أنفه **نسمة حياة**[١٥]، فصار آدم نفساً حيَّة» (تكوين ٢:٧).

١٣- مزمور ١٠٤:٢٤ (سبعينية).

١٤- ضدَّ الأريوسيِّين ٢:٧٨

١٥- لم يتعرَّض آباء الكنيسة برغم كثرتهم، لهذا الموضوع، إلاَّ القليلين منهم. فيرى القدِّيس إيريناؤس (١٣٠-٢٠٠م) أنَّ نسمة الحياة هي النَّفس البشريَّة. فيقول في الفرق بين الحياة والموت، وبين نسمة الحياة والرُّوح المحيي: [يقول إشعياء النَّبي: «ابتُلع الموتُ بقوةٍ» (إشعياء ٢٥: ٨ حسب التَّرجمة السَّبعينيَّة)، وهكذا زالت الحياة الأولى لأنها لم تكن قد أُعطِيت بالرُّوح القُدُس، بل بنسمة الحياة. فإنَّ نسمة الحياة التي جَعلت الإنسان نفسًا حيّةً هي شيءٌ، والرُّوح المُحيي شيءٌ آخر] (ضدَّ الهرطقات ٥: ١٢ :١-٢).

أمَّا القدِّيس كيرلُّس الكبير (٤١٢-٤٤٤م)، فيرى أنَّ نسمة الحياة، تعني الرُّوح القُدُس، فيقول: [الله الآب في البداءة بواسطة كلمته الخاص، قد أخذ تراباً من الأرض كما هو مكتوب، وجَبَلَ الكائن الحيّ – أعني الإنسان – وزوَّده بنفسٍ عاقلة، بالطَّريقة التي يعلمها هو، **وأناره بشركة روحه الخاص**، لأنه «نفخ في وجهه نسمة حياة» كما هو مكتوب] (تفسير يوحنَّا ٢٠:٢٢). كما يقول أيضاً: [لا يوجد أيُّ إنسان ذو تفكير

+ «وقال الربُّ الإله: ليس جيداً أن يكون آدم وحده، فأصنع له مُعيناً نظيره ... فأوقع الرَّبُّ الإله سُبَاتاً على آدم فنام، فأخذ واحدة من أضلاعه، وملأ مكانها لحماً. وبنى الرَّب الإله الضِّلْع التي أخذها من آدم امرأة، وأحضرها إلى آدم. فقال آدم: هذه الآن عظمٌ من عظامي، ولحمٌ من لحمي، هذه تُدعى امرأة لأنها من امرء أُخِذَتْ» (تكوين ٢:١٨، ٢١-٢٣).

ويمكن تلخيص فكر آباء الكنيسة عن الخلقة الأولى للإنسان، في العناصر التَّالية:
- ينفرد الإنسان في خلقته عن باقي المخلوقات، بأنه خُلق على صورة الله ومثاله.
- صورة الله في الإنسان، كامنة في طبيعة النَّفْس الخالدة.
- نفسُ الإنسان، لأنها خُلقت على الخلود، وعلى صورة الله، فلها القُدرة على إدراك الله ومعرفته، والتَّأمُّل فيه.
- فإن كانت النَّفْس نقيَّة طاهرة، تستطيع أن ترى - كما في مرآة - صورة الله الآب أي كلمته.
- وإن كانت تعاليم النَّفْس غير كافية، فإنها تستطيع معرفة الله من الأشياء المنظورة.
- صورة الله في الإنسان، واضحة في العقل، والنُّطق، والحكمة، والإرادة الحرة، والخلود.
- الإنسان مخلوق على صورة الله مع إمكانيةٍ، تمكِّنه من أن يبلغ إلى مثال الله، حين يبلغ إلى كمال الفضيلة والقداسة.

• نقول في صلاة الصُّلح في القُدَّاس الباسيلي: ''يا الله العظيم الأبدي، الذي **جبل الإنسان على غير فساد**، والموت الذي دخل إلى العالم بحسد إبليس، هدمته''. وهو نفس ما يقوله سفر الحكمة (٢:٢٣، ٢٤) «فإنَّ الله **خلق الإنسان خالدا، وصنعه على صورة ذاته**. لكن بحسد إبليس دخل الموت إلى العالم». ونقول في صلوات المعموديَّة المقدَّسة، إن الله ''جبل الإنسان، **وأعطاه سُلطان الحياة الدَّائمة**''.

كلُّ الكائنات مُنحت نعمة الوجود، أمَّا الإنسان وحده، فمنح نعمتان، نعمة الوجود، ونعمة خلقته عاقلاً، وعلى صورة الله ومثاله. فيقول البابا أثناسيوس الرَّسولي:

[الله صالح، أو بالحري هو بالضَّرورة مصدر الصَّلاح، والصَّالح لا يمكن أن يبخل بأيِّ شيء. لذلك فإنه، إذ لا يضن بنعمة الوجود على أيِّ شيء، **خلق كلَّ الأشياء من العدم بكلمته – يسوع المسيح ربِّنا**. وفضلاً عن ذلك، فإنه إذ أشفق بصفة خاصة على الجنس البشري دون سائر المخلوقات على الأرض، وإذ رأى ضعفه - بطبيعة تكوينه - عن أن يبقى في حال واحدة، منحه نعمةً أُخرى، **فإنه لم يكتف بمجرَّد خلقته للإنسان، كما خلق باقي المخلوقات غير العاقلة على الأرض، بل خلقه على صورته ومثاله، وأعطاه نصيباً حتى في قوة "كلمته"، لكي يستطيع وله نوعٌ من ظلِّ "الكلمة"، وقد خُلق عاقلاً، أن يبقى في السَّعادة أبداً، ويحيا الحياة الحقيقيَّة، حياة القدِّيسين في الفردوس**][١٦].

ويقول البابا أثناسيوس الرَّسولي أيضاً:

[الله جابلُ الكُل، وملكُ الكُل، الذي يعلو على كلِّ جوهر، ويعجز البشر عن اكتشافه، نظراً لعظم صلاحه، وسموِّه كلَّ السُّمو، **خلق – مخلصُنا يسوعُ المسيح بكلمته – الجنس البشري على صورته، وكوَّن الإنسان قادراً على رؤية وإدراك الحقائق، بواسطة هذه المشابهة لشخصه، مانحاً إيَّاه أيضاً أن يُدرك ويعرف حتى أزليَّته** (أي أزليَّة الله)، حتى إذا ما احتفظ بطبيعته كاملة، لا ينحرف عن فكرته عن الله قط، ولا يرتد عن شركة القدِّيسين. بل إذ نال نعمته التي وهبها

سليم، يمكن أن يفترض أنَّ النَّسمة التي صدرت من الجوهر الإلهي، صارت نفسًا مخلوقة، بل إنه **بعد أن صار للمخلوق نفس، أو بالحري بعد أن بلغ إلى كمال طبيعته بوجود النَّفْس والجسد معًا، فإنَّ الخالق طبع عليه خَتم الرُّوح القُدُس أي ختم طبيعته الخاصة، أي نسمة الحياة**، والتي بواسطتها صار المخلوق مشكّلاً بحسب الجمال الأصلي، واكتمل "على صورة ذاك الذي خلقه"، وهكذا وُهبت له الإمكانيَّة لكلِّ شكل من أشكال السُّمو، **بفضل الرُّوح الذي أُعطي له ليسكن فيه**. ولكن لأنه يملك حريَّة الإرادة ليتصرَّف في أغراضه الخاصة - لأنَّ هذه الحريَّة هي إحدى عناصر الصُّورة، مثلما أنَّ الله الذي خلقه له السُّلطان على أهدافه الخاصة به، **ولكن المخلوق تحوَّل وسقط**] (شرح إنجيل يوحنَّا ١٤:٢٠). كما أنه يكرِّر نفس القَول في كتابه: ''الحوار الرَّابع عن الثَّالوث''، حيث يذكر أنَّ الرُّوح القُدُس قد فارق آدم لمَّا سقط في المعصية. ولكنَّه يعود ويقول إنَّ كيفيَّة وجود النَّفْس في الإنسان، [سرٌّ مُغلق لا يعرفه إلاَّ الله].

Cf. *PG* 75, 908.

١٦- تجسد الكلمة ٣:٣

له، ونال أيضاً قوَّة الله من كلمة الآب، استطاع أن يغتبط **وتكون له شركة مع اللاَّهوت ... فإنَّ طهارة النَّفْس كافية في حدِّ ذاتها للتَّأمُّل في الله**، كما يقول الرَّب أيضاً: «طوبى للأنقياء القلب لأنهم يعاينون الله»][١٧].

ويشرح البابا أثناسيوس الرَّسولي أنَّ الإنسان هو الكائن الوحيد المخلوق عاقلاً، ويبرهن على وجود النَّفس العاقلة في الإنسان فيقول:

[الطَّبيعة العاقلة للنَّفْس، تتثبَّت بشدَّة، من اختلافها عن المخلوقات غير العاقلة. لأنَّ السَّبب في تسميتها بهذا الاسم (أي المخلوقات غير العاقلة)، هو أنَّ الجنس البشري عاقل ...

لأنَّ الحيوانات غير العاقلة، ترى فقط ما هو أمامها، ولا تتأثر إلاَّ بما تقع عليه أعينُها، حتى ولو كانت النَّتائج ضارة لها، بينما لا يتأثَّر الإنسان بمجرَّد ما يراه، بل يُحكِّم فكرَه فيما يراه بعينيه. فغرائزه مثلاً، كثيراً ما يتحكَّم فيها العقل، وعقلُه خاضع لإعادة التَّأمُّل والتَّفكير. وكلُّ واحد يدرك – إن كان محباً للحق – أنَّ عقل البشريَّة متميِّز عن حواس الجسد.

ولأنه متميِّز، فهو يتحكَّم في الحواس، التي حينما ترى المرئيَّات، فإنَّ العقل يميِّز، ويتأمَّل، ويبيِّن لها ما هو أفضل. لأنَّ الوظيفة الوحيدة للعَين، أن ترى. ووظيفة الأُذُن، أن تسمع. ووظيفة الأيدي، اللَّمس. ولكن ماذا يجب على المرء أن يرى ويسمع، ماذا يجب عليه أن يلمس ويذوق ويشم، هذا أمرٌ خارج عن نطاق الحواس، ويتعلَّق بالنَّفْس وبالعقل المستتر فيها. فاليد تستطيع أن تستل السَّيف، والفم قادر أن يذوق السُّم، ولكن كلاهما لا يعرف أنَّ هذه مؤذية، إن لم يقرِّر العقل] (رسالة إلى الوثنيِّين ٣٢:١-٣).

ويقول القدِّيس كيرلُّس الكبير:

[كان الله الآب في البداءة بواسطة كلمته الخاص، قد أخذ تراباً من الأرض كما هو مكتوب، وجَبَلَ الكائن الحيّ – أعني الإنسان – **وزوَّده بنفس عاقلة، بالطَّريقة التي يعلمها هو، وأناره بشركة روحه الخاص**، لأنه «نفخ في وجهه نسمة حياة» كما هو مكتوب] (تفسير يوحنَّا ٢٠:٢٢).

ويقول القدِّيس كيرلُّس الكبير أيضاً:

[كان من الحتمي أن يخلق الله في الأرض، كائنًا عاقلاً. لأنَّ كلَّ ما خُلِق قبله، خُلِق لأجل سعادته، حتى أنَّ الله رأى أنه حسنٌ جدًا، أنه قد خلق الإنسان. إذاً، طالما أنه خَلق الأرض مُسبقًا بجمال يتناسب معها وكلَّ الموجودات، فقد مضى في خلْق الإنسان، وجعل خلقته أسمى منها جميعًا، على الرَّغم من أنَّ كلَّ المخلوقات الأخرى صنعها بكلمته ... وعلى الرَّغم من أنه قد خلقه من الطِّين، إلاَّ أنه كائنٌ حيٌّ عاقلٌ، ونفخ فيه مباشرة روحاً خالدة ومحيية، لأنه مكتوب: «ونفخ في وجهه نسمة حياة، فصار آدم نفسًا حية» (تكوين ٢:٧). وبعد أن وضعه في الفردوس، وأعطاه السِّيادة على كلِّ المخلوقات الأرضيَّة ... وألزمها بنواميس طبيعيَّة أن تهابه، أصبح الإنسان يمثّل المجدَ الأسمى على الأرض، وصورةً للسِّيادة الملائمة لله] (جلافيرا، المقالة الأولى).

• ويقول الكاهن في صلوات المعموديَّة المقدَّسة: ''أيها السيِّد الرَّب الإله، ضابط الكُل، أبو ربِّنا وإلهنا ومخلِّصنا يسوع المسيح، الذي خلق كلَّ شيء، ربَّ السَّماء والأرض، **الذي أعطيت معرفتك للكائنين على الأرض، من قِبَل ابنك الوحيد ربِّنا يسوع المسيح** ...''.

ويشرح البابا أثناسيوس كيف أنَّ نفس الإنسان خالدة، وكيف أنَّ صورةُ الله في الإنسان كامنة في طبيعة النَّفس، فيقول:

[إن كانت النَّفس ... تُحرِّك الجسد، الذي لا يتحرَّك بغيرها، فيتبع هذا أنَّ حركة النَّفْس اختياريَّة ذاتيَّة، وهذه الحركة الذَّاتية تستمر بعد دفن الجسد في التُّراب ... وإن كانت (النَّفْس) تحرِّك نفسها، ترتَّب على هذا أنها تحيا

١٧– الرِّسالة إلى الوثنيِّين ٢:١، ٣

بعد الجسد ... **لأنَّ حركةَ النَّفْس هي بعينها حياتُها** ... هذا يمكن تبيانُه بأكثر وضوح – بصفة قاطعة – من فعل النَّفْس في الجسد. لأنها حتى إن كانت وهي متَّحدة بالجسد ومجتمعة به، ليست محبوسة أو محدودة بحدود الجسد الضَّيقة، بل حينما يكون الجسد مضطجعاً في الفراش عديم الحركة مستغرقاً في نوم يشبه الموت، كثيراً ما ظلَّت النَّفْس مستيقظة بفضل قوَّتها، وفاقت قوَّة الجسد الطبيعيَّة، وراحت تتخيَّل وتنظر أشياء أسمى من الأرض، **كأنها تتجوَّل خارج الجسد مع أنها باقية فيه**، وكثيراً ما اتَّصلت بالقدِّيسين والملائكة الذين هُم أسمى من دائرة الوجود الأرضي والجسدي، واقتربت منهم بفضل طهارة قوَّتها العقليَّة.

ألا يحصُل بالأولى حينما تنفصل عن الجسد في الوقت المحدَّد من الله الذي جمعهما معاً أن تزداد معرفتها عن الخلود بأكثر إيضاح؟ لأنها **إن كانت وهي مجتمعة بالجسد، كانت تحيا حياةً خارج الجسد، فبالأولى تستمر حياتُها بعد موت الجسد، وتحيا بلا انقضاء** بفضل الله الذي خلقها هكذا بكلمته، ربِّنا يسوع المسيح.

لأنَّ السَّبب في أنَّ النَّفْس تفكِّر وتذكر ما يتعلَّق بالخلود والأبديَّة، هو أنها هي نفسُها خالدة ... وتحيا للأبد. لأنَّ الآراء والأفكار عن الخلود، لا تفارق النَّفْس أبداً، بل تلازمُها وتلبث فيها كأنها الوقود لها، ممَّا يؤكِّد خلودِها. إذاً فهذا هو السَّبب في أنَّ للنَّفْس قُدرة على رؤية الله، وهذا هو طريقُها إليه، مستمِّدة معرفتها وإدراكها عن كلمة الله، لا من الخارج بل من ذاتها ...

لأنَّ النَّفْس خُلقت على صورة الله ومثاله، كما تُبين الكُتُب الإلهيَّة حين تقول على لسان الله[١٨] «نعملُ الإنسانَ على صورتنا كشبهنا»، لذلك أيضاً فإنها حينما تتخلَّص من كلِّ أدران الخطيئة التي تُغطيها وتستبقي فقط شبه الصُّورة في طهارتها، فإنه **إذ تستنير هذه الصُّورة، استنارة كاملة، ترى النَّفْس يقيناً – كما في مرآة – صورةَ الآب، أي الكلمة، وبه تصل إلى فكرة الآب، الذي نعلم أنَّ صورتَه هي المُخلِّص.**

أمَّا إذا كانت تعاليم النَّفْس غير كافية، بسبب الأشياء الخارجيَّة التي تطمس عقلها، وتعوِّقها عن رؤية ما هو أعلى، فإنها على ذلك **تستطيع معرفة الله من الأشياء المنظورة**، طالما كانت الخليقة تُعلن بصوت عال – كما في حروف مكتوبة – ربَّها وخالقها، وذلك بنظامها وتناسقها][١٩].

ويقول البابا أثناسيوس الرَّسولي:

[كما أنَّ كلمتنا هي صورةُ الكلمة الذى هو ابنُ الله، هكذا أيضاً فإنَّ الحكمة الموجودة فينا، هي صورةُ حكمته هو، التي بها يكون لنا المعرفة والفهم، ونصير قابلين للحكمة الخالقة، بل وبواسطتها نستطيع أن نعرف أباها. لأنه يقول: «من له الابن له الآب أيضاً»[٢٠] و «من يقبلني يقبل الذى أرسلني»[٢١] وحيث أنه قد خلق فينا بل وفي جميع أعماله مثل هذا الأثر من حكمته، فمن اللاَّئق أنَّ الحكمة الحقيقي والخالق، ينسب لنفسه ما يختص بأثره فينا، ويقول: «الرَّب خلقني لأجل أعماله»[٢٢]] (ضد الأريوسيِّين ٢:٧٨)[٢٣].

هذا معناه أنَّ الابن ليس مخلوقاً، وإنما هو الخالق. وإذ أنعم على الكائنات وأعطاها من حكمته عند خلقتها، جاء في ملء الزَّمان، واتَّحد بصورته التي سبق له أن طبعها في الخليقة، فقال: «الرَّب خلقني» معتبراً أن ما يخص الخليقة، يخصُّه هو أيضاً.

ويقول القدِّيس كيرلُّس الكبير:

١٨– تكوين ١ : ٢٦
١٩– الرِّسالة إلى الوثنيِّين ١:٣٣، ٣٤
٢٠– ١يو ٢:٢٣
٢١– متى ١٠:٤٠
٢٢– أمثال ٨:٢٢

23- *PG* 26, 312.21-42.

[إن **كلمة الله يُنير كلَّ إنسان آتٍ إلى العالم** ليس عن طريق التَّعليم، كما يفعل الملائكة مثلاً أو النَّاس، ولكنَّه **عن طريق الخلق كإله يبثُّ في الذين يدعوهم إلى الوجود بذرة الحكمة والمعرفة الإلهية**، ويغرس فيهم أصل الفهم، وهكذا يجعل الكائن الحيَّ عاقلاً، وشريكاً لطبيعته الخاصة، إذ يشع في ذهنه إشعاعات من النُّور الأسنى **بالكيفيَّة التي يعلمها هو، وأعتقد أنَّ الكلام الكثير غير جائز في هذه الأمور** ...] (شرح إنجيل يوحنَّا ١:٩).

• ويشرح القدِّيس غريغوريوس النِّيسي (٣٣٥ـ٣٩٥م) **أنَّ المحبَّة هي أهم ما يجعلنا على صورة الله ومثاله**، فيقول:
[كما أنَّ الرسَّامين ينقلون المعالم البشريَّة إلى اللَّوحات الفنيَّة بواسطة ألوان معيَّنة، فيضعون على الرَّسم صبغات خاصة متوافقة، تجعل جمال الأصل ينتقل بكلِّ دقة إلى الصُّورة؛ هكذا أفهم معي أنَّ **خالقنا أيضاً، قد زيَّن صورتَنا بخلع فضائله عليها، وكأنها ألوانٌ بهيَّة، حتى تنال جماله الخاص، فيُظهِر فينا أصل كيانه الخاص** ... الله محبَّة وينبوعُ المحبة، لأنَّ يوحنَّا العظيم يقول: «المحبَّة هي من الله»، و«الله محبَّة» (١يوحنا ٤:٧، ٨). لذلك فالذي جَبَل طبيعتَنا، قد جعل هذه تكون أيضاً سمتُنا الأساسيَّة، إذ يقول: «بهذا يعرف الجميع أنكم تلاميذي، إن أحببتم بعضكم بعضاً» (يوحنَّا ١٣: ٣٥). لذلك **إنْ كانت هذه (أي المحبَّة) غائبة، فإنَّ طابع الصُّورة برُمَّته يكون مشوَّهاً**] (في خلقة الإنسان: ٥).

(٣) تدعيم النِّعمة التي نالها الإنسان في خلقته، بالوصيَّة

يقول البابا أثناسيوس الرَّسولي:
[لعلمه (أي لعلم الله) ... أنَّ إرادةَ الإنسان يمكن أن تميل إلى إحدى الجهتَين[٢٤]، **سبق فدعَّم النِّعمة المعطاة له، بالوصيَّة التي قدَّمها إليه**، والمكان الذي أقامه فيه، لأنه أتى به إلى جنَّته، وأعطاه وصيَّة، حتى إذا حفظ النِّعمة، واستمر صالحاً، استطاع الاحتفاظ بحياته في الفردوس بلا حُزن ولا ألم ولا هَم، **فضلاً عن موعد عدم الفساد في السَّماء**. أمَّا إذا تعدَّى الوصيَّة وارتد، وأصبح شريراً، فيعلم بأنه **يجلب على نفسه الفساد بالموت الذي كان يستحقُّه بالطَّبيعة**، وأنه لا يستحق الحياة في الفردوس بعد، بل يُطرد منه من ذلك الوقت، ولكي يموت ويبقى في الموت والفساد.

وهذا يحذِّر منه الكتاب المقدَّس قائلاً بفم الله: «من جميع شجر الجنَّة تأكل أكلاً. وأمَّا شجرة معرفة الخير والشَّر فلا تأكل منها. لأنك يوم تأكل منها موتاً تموت»[٢٥]. وماذا يعني بقوله: «موتاً تموت». **ليس المقصود مجرَّد الموت فقط، بل أيضاً البقاء إلى الأبد في فساد الموت**][٢٦].

ويقول القدِّيس كيرلُّس الكبير:
[ولأنَّ هذا الإنسان الذى وصل إلى مثل هذه الدَّرجة من المجد والسَّعادة، كان يجب عليه أن يعرف جيدًا أنَّ سلطان الله الملك والرَّب يفوق كلَّ ما يمتلكه، وحتى لا ينزلق سريعًا بسبب امتيازاته الكثيرة إلى الاعتقاد بأنه صار حرًا من سُلطان الله وسموِّه، أعطاه الله على الفور وصيَّة، وبجوارها وضع له تهديد العقاب في حالة مخالفته لها] (جلافيرا، المقالة الأولى).

• وهنا نذكر الوصيَّة الجديدة التي قالها لنا الرَّب بعد أن أتى إلينا على الأرض؟ يقول: «وصيَّة جديدة أنا أعطيكم، أن تحبوا بعضكم بعضاً. كما أحببتكم أنا تحبون أنتم أيضاً بعضكم بعضاً» (يوحنَّا ١٣:٣٤). ولكن وصيَّة المحبَّة هذه ليست وصيَّة جديدة[٢٧]. ولكن الجديد فيها الآن هو في قول الرَّب: «كما أحببتكم أنا!!».

٢٤ـ أي الخير والشَّر.
٢٥ـ تكوين ٢:١٦، ١٧
٢٦ـ تجسد الكلمة ٣:٤، ٥
٢٧ـ انظر: ٢يوحنا ١:٥

خاتمة

كلُّ ما سبق ذكره، هو عن الخليقة الأولى للكائنات، وعن الخليقة الأولى للإنسان الذي جبله الرَّب من تـــراب الأرض، ونفخ فيه الله نسمة حياة من عنده. فصار آدم نفساً حيَّة.

أمَّا عن الخليقة الثَّانية الرُّوحانيَّة التي من فوق، فيقول عنها الكتاب المقدَّس: «مباركٌ الله أبو ربِّنا يسوع المسيح، الـــذي باركنا بكلِّ بَرَكَة روحيَّة في السَّماويَّات في المسيح يسوع، **كما اختارنا فيه قبل تأسيس العالم**، لنكون قدِّيسين وبلا لـــوم في المحبَّة، **إذ سبق فعيَّننا للتَّبني بيسوع المسيح لنفسه**، حسب مسرَّة مشيئته» (أفســـس ١:٣-٥). ويقول أيضاً: «لأنَّ الذين **سبق فعرفهم، سبق فعيَّنهم** ليكونوا مُشابهين صورة ابنه» (رومية ٨:٢٩). وأيضاً: «وتلبسوا الإنسان الجديد، المخلوق بحسب الله في البر وقداسة الحق» (أفسس ٤:٢٤). ويقول أيضاً: «نتكلَّم بحكمة الله في سرّ، الحكمة المكتومة، التي **ســـبق الله فعيَّنـــها قبـــل الدُّهور لمجدنا**» (١كورنثوس ٢:٧).

إذاً، ففي تدبير الله، وفي فكره، قد خَلَقَنا فيه قبل تأسيس العالم، لنكون أبناءً لله، في الابن الوحيد، وعلى صورة الابن، في البر وقداسة الحق، وعلى شبه صورة ابنه في المجد والبهاء.

إنَّ الخلقة الأولى للإنسان من تراب الأرض، لم تأتِ كخطأ في حسابات الله، ولكنَّه خطأ الإنسان الذي استغل حريَّـــة إرادته التي خُلق عليها، ليسيء استخدامه لهذه الحريَّة. وهكذا تدرَّج الإنسان في خلقته من خليقة ماديَّة إلى خليقة روحانيَّـــة، وانتقل من حالة الضَّعف والفساد، إلى حالة الكمال والبر.

وعلينا الآن أن نتحدَّث في المرَّة القادمة عن كيف حدث هذا السُّقوط؟ الذي أدى إلى تجسد الابن الوحيد، وموته علـــى الصَّليب، وقيامته من بين الأموات، ليغرس فينا خلقة روحيَّة جديدة، هي أسمى وأعظم من كل خليقة أُخرى.